شروط بناء الحضارة وأطوارها في فكر "مالك بن نبي"

أ.عبد القادر حوة

أستاذ مساعد

جامعة الجلفة

أكد مالك بن نبي أن الحضارة تقوم على الإنسان الذي يملك زمام المبادرة وقيادة حركة البناء، وبالتالي فالعالم الإسلامي مطالب بضرورة الاستثمار في الموارد البشرية لأنه مهما استورد العالم الإسلامي من التكنولوجيا الغربية فإن هذا لن يحقق النهضة مالم يتم تأهيل الإنسان أو لا.

مقدمـــــــة:

إن الأساس الذي يرتكز عليه النهضة هو الأساس الفكري، وقد أثبت الواقع صحة ذلك، فقد كانت القبائل العربية قبل الإسلام قبائل متناحرة متفرقة غارقة في الجهل، تحولت بفضل اعتناقها للفكرة الإسلامية إلى أمة واحدة قوية منيعة، وأصبح العرب قادة البشرية في جميع ميادين الحياة، وأصبحوا مركز النهضة في العالم، كما أن النهضة التي حدثت في الدول المتقدمة اليوم قامت على أساس الفكر الاشتراكي أو الرأسمالي، ولهذا تعرف النهضة بأنها: "الارتفاع الفكري"، ومعنى الارتفاع الفكري هو الانتقال من الناحية الحيوانية إلى الناحية الإنسانية، فالفكر المتعلق بالحصول على الطعام فكر ولكنه فكر غريزي منخفض، والفكر المتعلق بتنظيم الحصول على الطعام فكر ولكنه أعلى من الأول.

وقد كان لمعاناة المجتمعات الإسلامية من أزمات حضارية متعددة الأوجه – في القرون الأخيرة – الأثر الواضح في ظهور محاولات عديدة من قبل مفكرين من هذه الأمة للنهوض بها، فمنهم من أسهب في وصف سلبيات واقعها، مما أوهنه عن التمكن من معالجة الأدواء– وهم الأكثرية– وآخرون قدموا حلولا أبعد عن إمكانية التحقق في واقع بيئة خاصة المعالم كبيئة المجتمعات الإسلامية.

Mokarabat

وقد انقسمت هذه الحلول إلى فكر متطرف للأصالة منغلق عن الاستفادة من إيجابيات الغير، يقابله فكر آخر متنطع في الانفتاح اللامشروط على الحضارة الغربية، وذلك إثر الاحتكاك الاستعماري للغرب بالعالم الإسلامي، وهم من اصطلح على تسميتهم بـ"التقدميين"، أو الوجه الأكثر تطرفا منهم وهم "اللائكيون"[1] الذين اعتبروا الأصالة كابحة للانطلاق نحو الرقي الحضاري، فكانت جلّ تلك المواقف المتشددة تفشل في تحقيق أهدافها، باعتبارها خطابات بعيدة عن مرجعيات العقل المسلم وواقعه وطموحاته.

والأمة الإسلامية في سعيها للقيام بالدور الذي ائتمنها الخالق جل وعلا عليه، وفي سبيل استعادتها لمكانتها الحضارية، ومواجهتها مع الذات ومع الآخر، تحتاج أن يكون لديها الرصيد العقدي والفكري والسياسي المناسب لحمل أمانة هذه الرسالة، وخدمة الدعوة والمساهمة في نهضة البشرية بالشكل الصحيح شرعا والمعاصر منهجا، واللائق بتاريخ وقيمة هذه الأمة بين الأمم. وعندما ننقب في ماضي الحضارات المتطورة بحثا عن عوامل نهضتها، سيتمثل أمامنا دور الوعي والنضج في صناعة النهضة، كما أن التطور الحضاري يبدأ دائما مع أول بوادر الوعي، بل إن صدقية التطور على أرض الواقع إنما يتحقق إذا أتيح للوعي أن يسود المفاصل الحياتية للمجتمع.

وتمارس الثقافة دورها في هذا الجانب، فالثقافة الواعية تؤثر تأثيرا كبيرا في تطوير الإنسان، على عكس الثقافة المنغلقة التي تفضي إلى واقع سلبي يغيب الوعي ويعتم الرؤية.

وطريق النهضة الإسلامية في شتى مجالاتها المتباعدة لن يكون دون مراجعة فاحصة لتاريخ المكافحين المعاصرين، ممن واجهوا تحديات الاستعمار في ميادين السياسة والعلم والأدب والأخلاق والعزة الدينية، ووقفوا أمام عوائقه الحاجزة وقفات الجهاد والجلاد وهم

---

[1] – اللاييك Laïque في الفرنسية تفيد العامي في العربية، وهو الذي ليس له ثقافة دينية أو الذي ليس هو من رجال الدين، وهي تقابل مصطلح "Secularism" في اللغة الإنجليزية، أما الترجمة العربية الصحيحة لهذه الكلمة فهي: "العَلْمانية" بفتح العين وسكون اللام. أما اصطلاحا فهي مذهب هدّام يراد به فصل الدين عن الحياة كلها وإبعاده عنها، أو هي إقامة الحياة على غير دين إما بإبعاده قهرا ومحاربته علنا كالشيوعية، وإما بالسماح به وبضده من الإلحاد كما هو الحال في الدول الغربية التي تسمي هذا الصنيع حرية أو ديمقراطية أو تدين شخصي، بينما هو حرب للتدين. ذلك أن حصر الدين في نطاق فردي بعيدا عن حكم المجتمع وإصلاح شؤونه هو مجتمع لا ديني لأنه أقام حياته الاجتماعية والثقافية وسائر معاملاته على إقصاء الدين.
أنظر: غالب بن علي عواجي، المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، ج 2، المكتبة العصرية الذهبية، المملكة العربية السعودية، جدة، ط 1، 1427هـ– 2006م، ص 683.

Mokarabat

من الكثرة بحيث لا يستطيع أن يحصيهم غير القلة من المتفرغين. وسنحاول في دراستنا المتواضعة هذه أن نسلط الضوء ونخص بالذكر واحدا منهم لنضع بذلك لبنة متواضعة في صرح النهضة الإسلامية المعاصرة، وقد تكون هذه اللبنة قليلة الحيز، ضئيلة المكان، ولكنها تسد فراغا عاما، وتدعو بضآلتها المحدودة ذوي الأقلام الموهوبة إلى وضع اللبنات القوية حتى ينهض البناء.

إشكالية الدراسة:

من خلال ما سبق يمكننا طرح الإشكالية التالية: ما هي الدعائم الأساسية لقيام النهضة "مالك بن نبي أنموذجا"؟

محاور الدراسة:

للإجابة على الإشكالية المطروحة والإلمام بجوانبها فقد ارتأينا إلى تقسيم الدراسة إلى المحاور التالية:

1- مفهوم النهضة عند "مالك بن نبي" وأطوارها.

2- عوامل تشكيل الحضارة عند "مالك بن نبي".

3- أطوار الحضارة وشروط بنائها عند "مالك بن نبي".

4- أسباب فشل النهضة الإسلامية والتيارات المجابهة لها وأهمية التغيير.

5- إسهامات الحضارة الإسلامية في بزوغ الحضارة الغربية.

6- عوامل إعادة بعث الحضارة الإسلامية.

أهمية الموضوع:

إن موضوع النهضة، ومحاولة الكتابة عنه ضرورة لابد منه؛ لأنه متعلق بأمرين مهمين وهما:

الأول: موضوع الفهم، فإن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، وقد أفرد البخاري بابا في صحيحه أسماه "بابُ العلم قبل القول والعمل" وذلك لأن العمل بلا علم أمر فيه خلل كبير، فصواب العمل مقترن بالعلم الذي قاد إليه. وأول ما اوحي الله به تعالى إلى نبينه الكريم هو "إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم الانسان بالقلم"

Mokarabat

الثاني: هو ضرورة تنظيم الخارطة المعرفية الذهنية للعاملين في حقل النهضة. فكثير من المعارف والمعلومات التي يتلقاها الفرد الذي يهتم بشأن أمته تأتي من أطراف مختلفة، وفي غالب الأحيان تأتي أفكاراً متناقضة، ولا توجد خارطة معرفية منظمة مسبقة، بحيث يضع فيها الفرد العامل ما يتلقاه من معارف ومعلومات في مكانها الصحيح[1].

1- مفهوم النهضة عند "مالك بن نبي" وأطوارها

1-1 تعريف النهضة:

1-1-1 تعريف النهضة في الاشتقاق اللغوي: يعتبر مفهوم النهضة مصطلح حديث التداول في الفكر العربي، وبالرجوع إلى القواميس العربية فإن اللفظ لا يخرج عن الفعل الثلاثي "نَهَضَ" ومصدره ما يشتق منه "أنهضه فانتهض واستنهضه، أي أمره بالنهوض لأمر ما. وتستخدم الكلمة في عدة معاني في اللغة العربية منها:

نهض: النهوض البراح من المرضع والقيام عنه. ونهض النبت إذا استوى.

نهض: ينهض نهضاً نهوضاً. أي قام. انتصر القوم : قاموا للقتال.

النهضة: الطاقة. القوة. وأنهضه بالشيء قوّاه على النهوض به، مكان ناهض: مرتفع[2].

1-1-2 تعريف النهضة في الاصطلاح: عندما نستخدم مفهوم النهضة اليوم فإننا نستعيد به دلالات كانت تشير إليها الكلمة الأوروبية "Renaissance"، وقد استخدم الأوربيون هذه الكلمة للدلالة على فترة محددة من تاريخ أوربا، وما عرفته تلك الفترة من تحولات سياسية واقتصادية، وما واكب هذه التحولات من اتجاهات مجددة في الدين والعلم والفلسفة والفنون، وغالبا ما يراد الإشارة بلفظ النهضة أيضا عودة شيء ما أو شخص ما إلى الظهور، لذلك تطلق هذه الكلمة على "الحركة الثقافية التي بدأت في إيطاليا في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي (14م) واستمرت حتى نهاية القرن السابع عشر الميلادي

---

[1] – جاسم سلطان، النهضة.. من الصحوة إلى اليقظة، جاسم سلطان، النهضة.. من الصحوة إلى اليقظة، مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع، سلسلة: أدوات القادة – مشروع النهضة، بدون مكان، ط 4، 2010م، ص 05.

[2] – ابن منظور، لسان العرب، ج 6، دار المعارف، القاهرة، ص 4560.

Mokarabat

(17م)، وامتدت من إيطاليا إلى بقية أوروبا، وكانت تعرف باسم "الإحياء Restituto" لأنها أحيت التراث اليوناني وانفتحت على ما به حتى ولو خالف الإيمان أو الكنيسة، وقد تمثل ذلك في إحياء الفلسفة الطبيعية والعلم الطبيعي، حيث أعيدت قراءة أرسطو بمنهج جديد[1].

أهمية الثقافة في فكر "بن نبي" والتمييز بينها وبين الحضارة: تتصل كلمة ثقافة "culture" من ناحية الأصل اللغوي بكلمة "cult" عبادة، وهي باللاتينية "cultus"، وهما ذوا أصل مشترك في الكلمة الهندو-أوروبية "Kwel". أما كلمة حضارة "Civilisation" فمتصلة بكلمة وطن "civis" أو مواطن[2].

وللثقافة عند "مالك بن نبي" أهمية بالغة في الحياة التاريخية للحضارة، إذ يعتبرها كالدم بالنسبة لبنية الكائن الحي، والذي يحفظ توازنه ومقاومته، أما تربويا فيعتبر الثقافة مشروعا يجمع أفكار الشعب بالأفكار الفنية لقادته، ليكونا القوة المولدة للحضارة، فكل واقع اجتماعي أو نتاج حضاري في حقيقته ثقافة مجسدة، أساسها عناصره الأربع: المنهج الأخلاقي، الذوق الجمالي، المنطق العملي والصناعة، وكونها شروطا للثقافة يعني أنها شروطا للحضارة أيضا[3].

فالثقافة تبدأ "بالتمهيد السماوي" بما اشتمل عليه من دين وفن وأخلاق وفلسفة، وستظل الثقافة تُعنى بعلاقة الإنسان بتلك السماء التي هبط منها فكل شيء في إطار الثقافة إما تأكيد أو رفض أو شك أو تأمل في ذكريات ذلك الأصل السماوي للإنسان. تتميز الثقافة بهذا اللغز، وتستمر هكذا خلال الزمن في نضال مستمر لحل هذا اللغز.

أما الحضارة فهي استمرار للحياة الحيوانية ذات البعد الواحد، التبادل المادي بين الإنسان والطبيعة. هذا الجانب من الحياة يختلف عن الحيوان فقط في الدرجة والمستوى والتنظيم. هنا لا نرى إنسانا مرتبكا في مشاكله الدينية، أو مشكلة "هاملت"[4] أو مشكلة

---

[1] – عبد الله علي عمران، التيار العلمي في الفكر العربي، مذكرة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماجستير في الفكر العربي المعاصر، كلية الآداب، قسم الفلسفة، جامعة عمر المختار، الجماهيرية العربية الليبية، 2007-2008، ص 60.

[2] – علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة: محمد يوسف عدس، مؤسسة العلم الحديث، بيروت، 1414هـ-1999م، هامش رقم 03، ص 94.

[3] – هدى بن زقوطة، الدور الحضاري للمجتمعات الآسيوية المعاصرة عند مالك بن نبي (اليابان أنموذجا)، رسالة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماجستير في الفلسفة، جامعة منتوري، قسنطينة، 2009-2010، ص 14.

[4]– هي مسرحية تراجيدية تاريخية لـ "هاملت"، أمير الدنمارك، وهي مأساة لـ "ويليام شكسبير". وهي تعتبر واحدة من أفضل أعماله المعروفة والتي كتبها في العصور الوسطى، وقد كان لها صدى كبير من قبل الجمهور والنقاد على مر العصور، وتعتبر

Mokarabat

"الإخوة كرامازوف"[1]، إنما هو عضو المجتمع الغُفل، وظيفته أن يتعامل مع سلع الطبيعة ويغير العالم وفقا لاحتياجاته. كما أن الثقافة هي تأثير الدين على الإنسان أو تأثير الإنسان على نفسه، بينما الحضارة هي تأثير الذكاء على الطبيعة أو العالم الخارجي[2].

فالثقافة إذن هي الموجهة للحضارة وللفرد والمجتمع، ولذلك قال "مالك بن نبي": "وهذا ما نريد أن نتناوله هنا حين نربط ربطاً وثيقاً بين الثقافة والحضارة. وفي ضوء هذا الربط تصبح الثقافة نظرية في السلوك، أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة، وبهذا يمكن أن يقاس الفرق الضروري بين الثقافة والتعليم"[3].

إسهامات "مالك بن نبي" في بروز مفهوم النهضة: يعد "مالك بن نبي" من أبرز المفكرين المسلمين في العصر الحديث الذين تركزت جهودهم الفكرية والعملية على دراسة الفقه الحضاري منذ ابن خلدون". وإذا كان المسلم المعاصر مدعوّ لأن يسعى إلى امتلاك ناصية الوعي الحضاري وأن يتناول المشكلات التي تواجه الأمة من خلال المنحى الذي يفرض نفسه على الإنسان المعاصر في ضوء تحديات العولمة التي ترتدي مسوح التحضّر وتلتف برداء الكوكبية التي تهدف إلى إقصاء الخصوصيات وتدمير الثقافات المحلية، فإن "مالك بن نبي" يرى في هذا الصدد أن المشكل الرئيسي، بل أمّ المشكلات التي يواجهها العالم الإسلامي هي مشكلة الحضارة، كيف تدخل الشعوب الإسلامية دورة حضارية جديدة، وكيف تعود الشعوب الإسلامية التي خرجت من صلب التاريخ لحضارة جديدة. وإذا سلمنا بهذه الحقائق، يبقى علينا أن نفكر في مصير العالم الإسلامي، وكيف يمكن لنا الدخول في دورة حضارية جديدة[4].

2-1 أطوار حركة النهضة:

إن حركة النهضة تمر بسلسلة من العمليات. تبدأ من طور الصحوة واليقظة، وتتجلى في شكل النهضة التي تولّد بعدها أشكال العمران أو الحالة الحضارية في تجلياتها المادية.

من أهم الاستشهادات المكتوبة باللغة الإنجليزية. وقد أطلق عليها أعظم مسرحيات "شكسبير". ومسرحية "هاملت" هي مأساة من نوع الانتقام التي فيها شخصية العنوان "هامليت" وشخصيتان أخريان أيضاً يسعيان للانتقام من أجل وفاة والدهم.

[1] – الإخوة كرامازوف هي رواية للكاتب الروسي "فيودور دوستويفسكي" وتعتبر تتويجاً لأعماله.

[2] – علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، مرجع سابق، ص 94.

[3] – أسعد السحمراني، مالك بن نبي والإنسان ومسار الحضارة، ثقافتنا، العدد 13، 1427هـ.

[4] – سليمان الخطيب، المسألة الحضارية بين مالك بن نبي وسيد قطب، مجلة دراسات، العدد 20، السنة الرابعة، 2003، ص 64.

Mokarabat

1-2-1 الصحوة: تعتبر أولى مراحل انقشاع سحب التبلد الذهني. وسنستخدم هذا المصطلح هنا لوصف المرحلة الأولى في البعث الحضاري. من أعراضها الإيجابية: الإحساس بالذات والهوية. أما أعراضها السلبية فتتمثل في عدم تمتع أشكالها التنفيذية الانطلاقية بالرشد الكامل، فهي في جزء منها قد تبدو فوضوية غير منضبطة.

فالصحوة هي إرهاصات لحالة جديدة تعتري مجتمعاً ما، واضحة أحياناً ومشوشة أحياناً أخرى، ولكنها صرخات الجنين الأولى وحركة من صحا من نومه فجأة، ولكنه لم يستيقظ بعد ويتنبه لمحيطه الخارجي بشكل سليم، فربما اصطدم بمقعد أو دولاب دون أن يقصد أو يريد. ولكن هذه الأخطار تزيده صحواً وتنقله للاستيقاظ الكامل. وقد جاءت مرحلة الصحوة للأمة بعد مرحلة سبات عميق وركود مميت مكَّن أقدام المستكبرين من أن تدوس أرضها، وأن تخترق سهام الأفكار الغازية فضاءها العقلي .. فانطلقت عمليات البعث الفكري الأولى بدءاً بجولاتٍ على شكل دفاعي؛ لتطور نفسها بعد ذلك في شكل هجومي، ولكنها ظلت حركة عقلية للنخب والمثقفين، وليست زاداً للأمة بعمومها. فقيض الله من رجالات الأمة من نزلوا بهذه الأفكار لجماهير الأمة فبينوا عظمتها وسموها على غيرها، وكشفوا للأمة نقاط ضعف غيرها من الأفكار، وتوجهت جهودهم في حشد الجماهير حول الإسلام، فتراجعت أمامهم جميع الأفكار وانزوت وانحصرت، ولولا سطوة السلطان ما بقي منها شيء.

2-2-1 اليقظة: أما اليقظة فهي حالة تالية تنقشع فيها بقية الغبار العقلي، ويعرف فيها المرء مكانه ووضعه بالنسبة لما يحيط به من أشياء وبشر، فتتضح الرؤية، ويكيف حركته ليسير بين عالم الموجودات المادية حوله وينظم علاقته بعالم البشر المحيط به. ومن أعراضها الإيجابية الرشد والوعي والعمل المخطط المدروس، في ظل رؤية تجمع الجهود العملية التي كانت تبدو متباينة أو متضاربة في مرحلة الصحوة.

3-2-1 النهضة: يمكن النظر إلى النهضة على أنها حالة تالية عندما ينظم عالم الأفكار[1]، ويستيقظ عالم المشاعر[2]، ويندفع الإنسان فيها متحرراً من قيود الخوف ليمارس

[1] – يقصد بعالم الأفكار التصورات وإدراك العالم الخارجي ومجموعة المبادئ والصواب والخطأ والمشاعر والأحاسيس.
[2] – أفرد بعض العلماء عالم المشاعر والأحاسيس كعالم رابع منفرد ولم يدرجوه تحت عالم الأفكار.

Mokarabat

دوره في جميع المجالات. ويمكن صياغة أعراضها الإيجابية في استشعار الإنسان لـــذة العمل والاكتشاف والقوة، فهي حالة تتخلل كل أشكال الحياة، وحالة تعطي للوقت قيمتـــه في حياة الأمة، وتعطي للتفوق والإبداع تقديرهما. إنها مرحلة تدفق الشلال – الذي كـــان يسمى بالصحوة – ليصوغ كل مجالات الحياة – العلمية والتطبيقية – صياغة جديدة.

ففي مرحلة النهضة يعم نور البحث والنظر وتولد الإبداعات التي تؤسس لنشوء عالم الأشياء الذي يزود الحق بالقوة فيسيران معاً.

4-2-1 الحضارة: تعتبر قضية الحضارة القضية الكبرى في هذا العصر، بل في كل عصر، فهي الحيز الذي تنبثق منه وتنتظم فيه مختلف القـــضايا القوميـــة والإنـــسانية[1]. ويعرف "مالك بن نبي" الحضارة بأنها: "مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التـــي تتـــيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد في كل طور من أطوار حياته المساعدة الـــضرورية"، أو هي: "إنتاج فكرة حية تطبع على المجتمع الدفعة التي تجعله يدخل التاريخ"[2].

فالحضارة إذن عند "مالك بن نبي" هي الحاضنة للتقدم، والمحيط المناســـب لإشـــاعة ثقافة العلم، حين تعطي الفكرة المبررات لدافعية اليد والعقل للاستفادة من الوقت.

كما أنها حالة من بناء النموذج المنشود في عالم الواقع متمثلاً في نموذج فكري متقدم، وعالم علاقات وسلوك[3] متقدم، وعالم من الإنتاج المادي الصناعي والمعمـــاري والفنـــي متقدم[4].

ويمكن القول بأن الحضارة ظاهرة إنسانية عامة، فالإنسان هو المخلوق الوحيد الـــذي يرتقي ويعمل على تحسين أحوال نفسه بفضل ما أهداه الله من عقل يمكنه مـــن التفكيـــر واختزان المعلومات والربط بينها والإفادة منها، فكل أجناس البشر متحضرة، ومـــا مـــن

---

[1] – المرجع السابق، ص 63.

[2] – محمد العبدة، مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي، الإسلام اليوم، الخميس 28 ربيع الأول 1424 الموافق 29 مايو 2003، www.islamtoday.net، تاريخ الزيارة: 26-03-2013.

[3] – يقصد بعالم العلاقات والسلوك الحياة الاجتماعية والمدنية والعلاقات المنظمة للأفراد والجماعات.

[4] – جاسم سلطان، النهضة، مرجع سابق، ص ص 38-39.

Mokarabat

شعب إلا وله مستواه الحضاري، والفرق في المستويات. فالجماعات البدائية التي مازالت تحت سفح الجبل لها حضارتها[1].

الشكل رقم (01): أطوار حركة النهضة

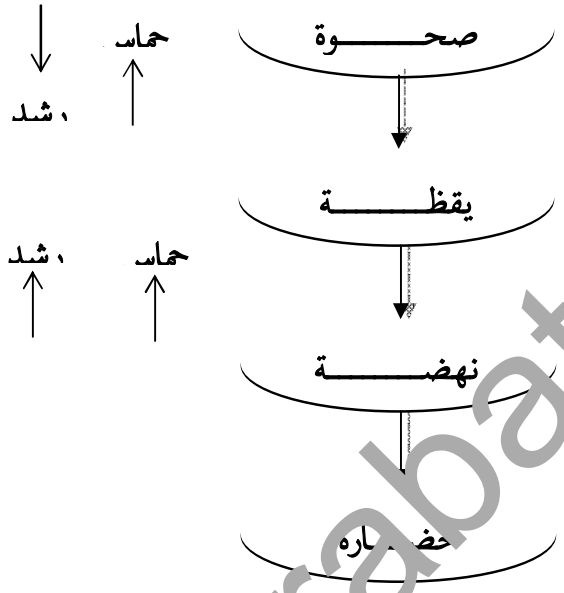

المصدر: جاسم سلطان، مرجع سابق، ص 35.

2-عوامل تشكيل الحضارة عند "مالك بن نبي":

في ضوء الاعتبارات السابقة يصبح من الضروري ان نحوّل السؤال المثار بصورة ضمنية من خلال موقف العالم الإسلامي منذ قرن من الزمن: كيف نصنع منتجات الحضارة. إلى سؤال صريح: **كيف نصنع الحضارة؟**

ولتحليل هذه المشكلة يتوجب إتباع الطريقة المعتمدة في مختبر التحليلات، فلتحليل مادة ما فإنه لا يتم نقلها برمتها إلى المختبر، إنما يقتصر الأمر على اقتطاع عينات منها فقط، وعينات حضارة ما هي منتجاتها الاجتماعية في جميع أشكالها. ولو تم تحليل هذه العينة من وجهة نظر علم الاجتماع لوُجِد أن محتواها أو مادتها الجوهرية المتعلقة بعلم الاجتماع تؤول إلى ثلاثة حدود هي: التراب، الزمن والإنسان[2].

وقد صاغ مالك بن نبي هذه العوامل التي تشكل الحضارة بالمعادلة التالية:

---

[1] – حسين مؤنس، الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، مجلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978م، ص 44.

[2] – مالك بن نبي، القضايا الكبرى، دار الفكر، دمشق، سوريا، طبعة 1420 هـ– 2000م، ص ص 54 – 55.

Mokarabat

ناتج حضاري = إنسان + تراب + وقت

غير أن هذه المعادلة لا تعطي ثمارها إلا بمفاعل أو مركب يدمج هذه العناصر ويعطيها غاية، وهذا المفاعل هو الدين أو ما أسماه الفكرة الدينية أو العنصر الأخلاقي، وسواء كان هذا الدين سماوياً حقاً كالإسلام أو عقيدة ومبدأ يبلغ عند أصحابه مبلغ الدين[1].

ويقرب ذلك (ففي المصباح مثلاً يوجد إنسان خلف العملية العلمية والصناعية التي يعد المصباح ثمرتها؟ والتراب في عناصره من موصل وعازل، وهو يتدخل بعنصره في نشأة الإنسان العضوية، والوقت (مناط) يبرز في جميع العمليات البيولوجية والتكنولوجية، وهو ينتج المصباح بمساعدة العنصرين الأولين: الإنسان والتراب. وبهذا يجد "مالك بن نبي" أن المجتمعات إذا ما استطاعت أن تحل الإشكاليات التي تواجه الوقت، والإنسان، والتراب، فقد حلت مشكلة الحضارة. لا مع الركن الأساس الذي نوهنا عليه في قيام نظرية "مالك بن نبي" في نشوء الحضارات، وذلك نجده ينطلق من إثارة سؤال يفرضه "بن نبي" على بحثه لتثبيت خطاه علمياً وفي نفس الاتكاء كيميائياً على أمر مقطوع به في مقرره الكيميائي، وهو أنه إذا كانت الحضارة ناتجاً لمجموع هذه الأشياء الثلاثة؛ فلما لا تظهر حضارات تلقائياً لمجرد توفير تكلم الحدود الثلاثة: فكون اتكاءه على نتاج الماء كيميائياً من الهيدروجين والأوكسجين، وذلك لا يكون تلقائياً، وإنما يخضع لقانون كيميائي بمشاركة مركب معين.

من هنا يضع "مالك بن نبي" مركب الحضارة، فلا بد من وجود مركب يؤثر في المزج والإثمار، وهو الفكرة الدينية أو المركب الديني الذي رافق تركيب كل الحضارات خلال التاريخ. فلقد ولدت المجتمعات التي ما تنفك تسلط حتى هذا الحين انعكاسات حضارتها على الخارطة الجغرافية، وأعني بها: الهندوسية، والبوذية والموسوية والمسيحية والإسلامية، من هذه الانطلاقة الروحية التي أقامت هياكل (براهما) و(بهوة) ومعابد البوذية والكنائس القوطية والمساجد الإسلامية فلكل هذه الحضارات –المعاصرة لنا– قد شكلت تركيبها المتألف، في مهد فكرة دينية[2].

---

[1]– محمد العبدة، مرجع سابق.

[2] – عبد الرزاق الجبران، فلسفة النشوء الحضاري، مجلة النبأ، العدد 41، شوال 1420 ، كانون الثاني 2000، ص 33.

Mokarabat

ومن الطبيعي أن يكون هذا النموذج متنوعا حسب الحاجة في مجتمع اعتنى أكثر من غيره بالتخصص وتوزيع العمل.

1-2 الإنسان:

قبل الانتقال إلى دراسة العلاقة بين الإنسان والحضارة لنرى إن كان ما يزعمه بعض الناس من أن هناك أجناسا قادرة على الترقي وصنع الحضارة وأجناسا أخرى لا تستطيع ذلك. نقف لحظات عند تصوير لطيف لمسيرة الحضارة وانتقال الناس من الحالة البدائية إليها، وهذا التصور يسهل علينا تتبع موضوع الحركة الحضارية، وصاحبه هو ذلك المفكر الفرنسي النابه "سان سيمون" في قوله: "إن الناس كانوا أول الأمر أشتاتا متفرقة، ثم نشأت الأسر وتجمع بعضها إلى بعض ونشأت الجماعات الإنسانية البدائية، التي ظلت تعيش على الحالة البدائية دهورا طويلة توصلت خلالها من اختراع أو اقتباس أساسيات الاستقرار والحياة المستقرة، وهي الزراعة إلى الانتقال من مرحلة جمع الطعام إلى صناعته واستخدام النار وعمل الفخار وما إلى ذلك، ثم تنظيم نفسها في نفس الوقت على أي صورة من صور التنظيم الاجتماعي البدائي وهذه الحالة يسميها "سان سيمون" ومن تابعه بحالة سفح الجبل*، وقد تظل الجماعة على هذه الحالة ولا تنتقل إلى ما هو أعلى منها أبدا، وإلى يومنا هذا تعيش جماعات بشرية في هذا المستوى"[1].

فالإنسان هو محور التغيير وأداته، ويجب بناء الإنسان الجديد القوي بمعرفته لذاته ولغيره والمدرك لدوره والمؤمن بأهمية رسالته، ولا يكون هذا إلا بالتركيز على التجديد والتغيير فيما يتعلق بالجانب النفسي لإنسان ما بعد الموحدين، لأن معجزة التغيير مستوطنة في نفسية الفرد لا فيما يحيط به من وسائل مادية، وتغيير نفسية الفرد معناه تغيير طبيعة علاقاته بالمشكلات التي يواجهها وتخليصه من ذهاني السهولة والاستحالة.

---

* – الجبل المذكور رمزي، ويراد به جبل الحضارة وتقدم الجماعات وارتقاؤها الحضاري أشبه بتسلق هذا الجبل. في حالات بعض الجماعات البشرية البدائية حدث أن أكتشف بعض أفراد الجماعة أو قادتها سبيلا لصعود الجبل، أي طريقا إلى الخروج من الحالة البدائية الإستاتيكية أي الساكنة، فأخذت الجماعة تتوغل الجبل يتقدمها رؤساؤها وتخرج من حالة السكون الإستاتيكي إلى حالة الحركة الديناميكية، وتصبح الجماعة في حالة يسمونها حالة تحضر أو حالة حركة حضارية، وقد لا توفق الجماعة في الصعود فتتنكس وتهوي إلى السفح مرة أخرى، وقد تحاول الصعود من جديد، وقد لا تحاول وترتد إلى حالة سكون البدائية وتمر الدهور، ولكنها تحاول في الغالب مرة بعد مرة حتى تستطيع الاستمرار في الصعود.

أنظر: حسين مؤنس، مرجع سابق، ص 38.

[1] – حسين مؤنس، مرجع سابق، ص ص 37–38.

Mokarabat

يجب على هذا الإنسان الجديد التعرف على ذاته من دون نكران لها ولا تمجيد، وإنما بعقلانية الممحص والناقد الموضوعي، والتعرف على الآخر من دون عقدة رفض ولا انبهار، وإنما بمعرفة موضوعية تُظهر حقيقة الآخر بإيجابياته وسلبياته. ليجد بذلك مكانه المناسب في خريطة التطور الحضاري للمجتمعات والأمم. وبعدها يسعى لتعريف الآخر بنفسه، من خلال البحث عن آليات التواصل معه من جهة، ومحاولة معرفة حاجات الإنسانية لغرض خدمتها[1].

فالفرد بصفته عاملا أوليا للحضارة له قيمتان الأولى طبيعية والأخرى اجتماعية. فالقيمة الأولى موجودة في كل فرد من الأفراد، في تكوينه البيولوجي، وتتمثل في استعداده الفطري لاستغلال فطريته وترابه ووقته.

وأما القيمة الثانية وهي القيمة الصناعية فإنه يكتسبها من وسطه الاجتماعي، وتتمثل في الوسائل والمسيرات التي يجدها في إطاره الاجتماعي لترقية شخصيته وتنمية مواهبه وتهذيبها. وتتمثل وظيفة الهيئة الاجتماعية في هذه الترقية أو التنمية. فإنها تصنع للإنسان ما يمده في رفع مستواه من مدرسة أو مستشفى، ومن إدارة تسهر على رعاية مصالحه، ... إلخ[2].

2-2 التراب:

يعتبر التراب من وجهة نظر "مالك بن نبي" أحد العناصر الثلاثة التي تكون الحضارة، فإذا ما توفر المركب الديني لتركيب هذه العناصر فإنه جدير بالدراسة واعتباره كعامل من عوامل الحضارة، والمقصود بالتراب هنا هو القيمة الاجتماعية والمستمدة من قيمة مالكيه، فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة وحضارتها متقدمة يكون التراب غالي القيمة، وحيث تكون الأمة متخلفة يكون التراب على قدرها من الانحطاط. وإذا ما أسقطنا هذا على أرض الإسلام بصورة عامة، فإننا نجد التراب على شيء من الانحطاط بسبب تأخر القوم الذين يعيشون عليه[3].

---

[1] – محمد لعاطف، مقومات النهوض الحضاري عند مالك بن نبي، مركز الأصالة للدراسات، شبكة معرفية: www.veecos.net، الأربعاء 08 يونيو 2011، تاريخ الزيارة: 25-03-2013.

[2] – مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر، دمشق، طبعة 1406هـ-1986م، ص 145-146.

[3] – نفس المرجع، ص 131.

Mokarabat

وهذا الأمر لا يشكل مجرد مشكلة فقط في نظر "مالك بن نبي"، بل تعتبر في الحقيقة مأساة دامية، إذ تموت الأرض الخضراء عن أهلها، وتتركهم يتامى بين يدي الصحراء المقفرة، وليس لهم من مطعم إلا بعض أشجار النخيل، وليس لهم من مشرب إلا بقية مما ترك الشتاء من مطر، هذا المصير الذي تنتظره أراضينا الخصبة يشبه إلى حد كبير مأساة "برقة" التي اكتسحتها الرمال منذ ألف عام.

ويرى "مالك بن نبي" أن سكان الأرض اتخذوا موقف الجبان الضعيف إزاء هذا الغزو، حيث فر سكان البوادي الرحالة الذين لم تبق لهم أرض يحرثونها ولا ماشية لهم يحلبونها، ولم يبق لهم سوى الدواب ليركبوها فارين بها، فهم الآن تائهون حيارى بين الصحراء التي تبدده، وبين المدن الساحلية التي ترفضهم أو تبلعهم حيث تجعل منهم أناسا منبوذين[1].

3-2 الوقت:

ففي ساعات الخطر في التاريخ، تمنح قيمة الزمن بغريزة المحافظة على البقاء، إذا استيقظت، ففي هذه الساعات التي تحدث فيها انتفاضات الشعوب لا يقوم الوقت بالمال، كما ينتفي عند معنى العدم، إنه يصبح جوهر الحياة الذي لا يقدر[2].

فالزمن يندمج داخل سائر الاطراد العلمي والفني الواقع بين اكتشاف الظاهرة الكهربائية، حوالي نهاية القرن الثامن عشر، وبين تطبيقاتها في ميدان الإنارة حوالي منتصف القرن التاسع عشر، ذلك أن الزمن يمثل الركيزة التي يقوم عليها هذا الإطراد[3].

وحينما لا يكون الوقت من أجل الإثراء أو تحصيل النعم الفانية، أي حينما يكون لازما للمحافظة على البقاء أو لتحقيق الخلود والانتصار على الأخطار، يسمع الناس فجأة صوت الساعات الهاربة ويدركون قيمتها التي لا تعوض، ففي هذه الساعات لا تهم الناس الثروة أو السعادة أو الألم وإنما الساعات نفسها، فيتحدثون حينئذ عن "ساعات العمل"، أي العملة الوحيدة المطلقة التي لا تبطل، ولا تسترد إذا ضاعت. فالعملة الذهبية يمكن أن تضيع،

---

[1] – المرجع السابق، ص 132.

[2] – نفسه، ص 139.

[3] – مالك بن نبي، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 55.

Mokarabat

وأن يجدها المرء بعد ضياعها، ولكن لا تستطيع أي قوة في العالم أن تحطم دقيقة، ولا أن تستعيدها إذا مضت[1].

إن الزمن نهر قديم يعبر العالم، ويروي في أربع وعشرين ساعة الرقعة التي يعيش فيها كل شعب، والحقل الذي يعمل به، ولكن هذه الساعات التي تصبح تاريخيا هنا وهناك، قد تصير عدماً إذا مرّت فوق رؤوس لا تسمع خريرها. فإذا قِسنا الزمن بمقياس الساعات التائهة، فالقرن لا يساوي شيئا، بل حتى ألف سنة لا تساوي شيئا[2].

وبتحديد فكرة الزمن يتحدد معنى التأثير والإنتاج، وهو معنى الحياة الحاضرة الذي ينقصنا، هذا المعنى الذي لم نكسبه بعد، هو مفهوم الزمن الداخل في تكوين الفكرة والنشاط، في تكوين المعنى والأشياء.

فالحياة والتاريخ الباحثان عن للتوقيت كان وما يزال يفوتنا قطارهما، فنحن في حاجة ملحة إلى توقيت دقيق، وخطوات واسعة لكي نعوِّض تأخرنا. ويتم هذا بتحديد المنطقة التي ترويها ساعات معينة من الساعات الأربع والعشرين التي تمر على أرضنا يوميا[3].

3- أطوار الحضارة وشروط بنائها عند "مالك بن نبي":

3-1 أطوار الحضارة عند "مالك بن نبي":

يرى "مالك بن نبي" أن كل حضارة تمر عبر ثلاث مراحل هي: مرحلة الانطلاق، العقلانية أو الانعطاف ومرحلة الانحلال والانحطاط. ويمكن توضيح ذلك من خلال الشكل التالي:

Mokarabat

[1] – مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص ص 139–140.
[2] – مالك بن نبي، بين التيه والرشاد، دار الفكر، دمشق، سوريا، طبعة 1423هـ– 2002م، ص 68.
[3] – نفسه، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 140.

الشكل رقم (02): أطوار الحضارة عند "مالك بن نبي"

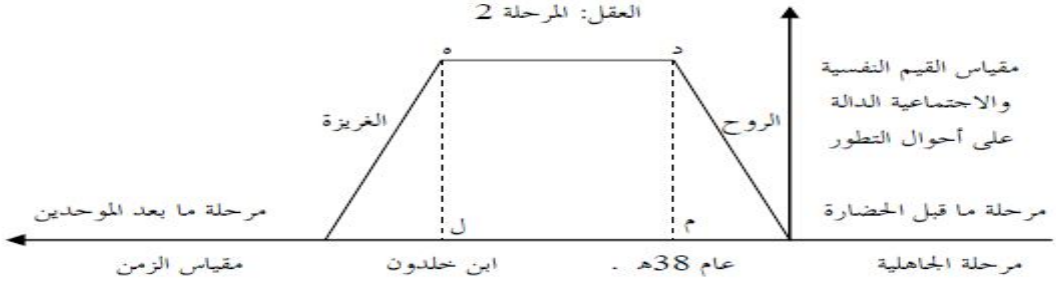

المصدر: مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 66.

1-1-3 مرحلة النهوض: تبدأ ببزوغ فكرة دينية تقوم بتركيب عناصر الحضارة، وتنظم الطاقة الحيوية للأفراد لتثير فيهم الحركة والنشاط بحيث يتحرر الفرد في هذه المرحلة الصاعدة من هيمنة الغريزة ويخضع لهيمنة الروح، وفي هذه المرحلة تصل "شبكة العلاقات الاجتماعية إلى قمة كثافتها فيصبح المجتمع كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا.

2-1-3 مرحلة العقلانية أو مرحلة الانطلاق: تنعطف فيها الحضارة بسبب المشكلات المادية الناتجة عن توسع المجتمع وولد منعطفا تكف فيه الروح عن السيطرة المطلقة على الغرائز، ويبدأ عهد العقل. وتمثل هذه المرحلة منعطفا للعقل، وتنقص في هذه المرحلة الفاعلية الاجتماعية للفكرة الدينية، وإن كانت الحضارة نفسها تبلغ أوجها فتزدهر العلوم والفنون فيها، ولكن مرضا اجتماعيا يكون قد بدا وإن تكن آثاره المحسوسة لم تظهر بعد. إن الطبيعة تستعيد سيطرتها على المجتمع والفرد شيئا فشيئا.

3-1-3 مرحلة الانحطاط والانحلال: حيث لا يعود للفكرة الدينية فيه من وظيفة اجتماعية، وتعود الأشياء كما كانت في مجتمع منحل، وتتفكك شبكة العلاقات الاجتماعية بانحلال المجتمع إلى ذرات لا روابط بينها وتنتهي بهذا دورة الحضارة.

Mokarabat

ويرى "مالك بن نبي" في هذا الصدد أن كل الحضارات الإنسانية خضعت لنفس هـذا القانون الدوري المتحكم الذي تخضع له الحضارة الإسلامية بدوره[1].

فنحن نعلم مسبقا أن حضارة معينة تقع بين حدين اثنين: الميلاد والأفول، وإذن فنحن نملك هنا نقطتين اثنتين من ذروتها باعتبارهما ليستا محل نزاع. والمنحنى البيـاني يبـدأ بالضرورة من النقطة الأولى في خط صاعد، ليصل إلى النقطة الثانية في خط نازل. فما الذي يمكننا أن نضع من طور انتقالي يتوسط هذين الخطين؟ ويجيبنا المصطلح الـشعبي مشيرا إلى طور وسيط هو الأوج.

وبين الطورين الأولين يوجد بالضرورة توازٍ معين، يشير إلى تعاكس في الظـاهرة. فطور الأفول النازل معاكس طور النهضة الصاعدة، وبين الطورين يوجد بالـضرورة اكتمال معين هو طور انتشار الحضارة وتوسعها[2].

2-3 شروط بناء الحضارة عند "مالك بن نبي":

لقد بين "مالك بن نبي" شروط النهضة من خلال ثلاثيتـه المـشهورة، فهـي الـزاد الأساسي لإرادة التغيير التي لابدّ منها لرجل الحضارة الذي يريد أن يتحرك لكـي يـصبح رجل النهضة فلا زاد سوى الإنسان، والتراب، والوقت، وإرادته لتلك الحركة، فهذه هـي رأس المال المبدئي. وكل ما عدا ذلك من القصور والشاحنات، والجامعات والطائرات، ما هي إلا مكتسبات النهضة، وليست عناصر أولية لعملية النهضة.

وليس من الضروري ولا من الممكن أن تكون لمجتمع فقير الإمكانيات من الذهب كي ينهض، وإنما ينهض بالرصيد الذي وضعته العناية الإلهية بين يديه من الإنسان والتراب والوقت.

[1] – سامر مظهر قنطقجي، النظرية التنموية في فكر ابن خلدون ومالك بن نبي، ورقة عمل قدمت في الملتقى الدولي في اقتصاد التنمية (نحو تنمية واقعية في الجزائر)، جامعة باجي مختار، عنابة، 4-2006/10/5، ص 06.

[2] – مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 66.

Mokarabat

فالإنسان إذن هو محور الفاعلية في حركة النهضة، وذلك بتحقيق الخلافة على هذه الأرض مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[2].

والنهضة رهن بمدى فاعلية الإنسان وحركته من أجل إنجازها، وليست المادة وحدها العاملة على التغيير بل التركيبة الثلاثية بقيادة الإنسان[3].

1-2-3 التوجيه الأخلاقي: إن الأخلاق كظاهرة واقعية في الحياة الإنسانية، لا يمكن تفسيرها تفسيرا عقليا، ولعل في هذا الحجة الأولى والعملية للدين، فالسلوك الأخلاقي، إما أنه لا معنى له، وإما أن له معنى في وجود الله، وليس هناك اختيار ثالث. فإما أن يتم إسقاط الأخلاق كونها كومة من التحصيلات، أو أن يتم إدخال في المعادلة قيمة يمكن تسميتها بالخلود، فإذا توافر شرط الثواب الخالدة، وأن هناك عالما آخر غير هذا العالم، وأن الله موجود، بذلك يكون سلوك الإنسان الأخلاقي له معنى وله مبرر[4].

ويركز "مالك بن نبي" كثيرا على موضوع الأخلاق كرافع من روافع الحضارة، ويتحدث عن الأخلاق المطبقة عمليا، وعن العلاقات الحية بين أفراد المجتمع، فالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار كانت لبنة أساسية في بناء المجتمع الإسلامي، وبفقدان الأخلاق تتحول السياسة إلى تهريج ودجل[5].

والمقصود بالأخلاق من الزاوية الاجتماعية وليس من الناحية الفلسفية، كما أن المقصود بالأخلاق في فكر "مالك بن نبي" هو تحديد "قوة التماسك" اللازمة للأفراد في مجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية وليس المقصود تشريح مبادئ خلقية، وترتبط هذه القوة في أصلها بغريزة "الحياة في جماعة" عند الفرد، والتي تتيح له تكوين القبيلة والعشيرة

---

[1] – سورة البقرة، الآية: 30.

[2] – سورة هود، الآية: 61.

[3] – حسن موسى محمد العقبي، مالك بن نبي وموقفه من القضايا الفكرية المعاصرة، رسالة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماجستير في العقيدة والمذاهب المعاصرة، الجامعة الإسلامية، غزة، 1426هـ– 2005م، ص 185.

[4] – علي عزت بيجوفيتش، مرجع سابق، ص 178.

[5] – محمد العبدة، مرجع سابق، ص 122.

Mokarabat

والمدينة والأمة، وتستخدم القبائل الموغلة في البداوة هذه الغريزة لكي تتجمع، والمجتمع الذي يتجمع لتكوين حضارة، فإن يستخدم نفس الغريزة، ولكنه يهذبها ويوظفها بروح خلقية سامية[1].

2-2-3 التوجيه الجمالي: أما الوجه الجمالي فهو مصداق لقول رسول الله ﷺ: ﴿إن الله جميل يحب الجمال﴾[2]، أي أن يكون عند المسلم حاسة النفور من الأشياء القبيحة، ينفر من عدم النظافة، من الأسمال البالية على طفل لو يوفر له المجتمع العيش الكريم[3].

يتجلى الجمال عند "مالك بن نبي" في الألوان والأشكال والحركات التي يقبلها الذوق السليم، مما ينعكس إيجابا على أفكار صاحبه، فيوجهه إلى الشعور بقيمة كرامته فيرقى بسلوكاته إلى الفضيلة، وبالعكس، فالمظاهر القبيحة تسيء إلى فكر متلقيها وبالتالي إلى أعماله، فالمظهر الجمالي طبيعيا كان أم فنيا يعد سببا في توجيه الكيان الإنساني إلى الرقي بفكره ووجدانه، فهو لبنات تكرس تناسق إيجابيات بنيته النفسية وتوافق المبدأ الأخلاقي السليم، وإذا عرفنا أن هذا الأخير قد يقترن فيه من القسوة الظاهرة على معتنقه، ما ينفر البعض منه، فإن اتصاله بالتوجيه الجمالي ينبع من ذوق سليم سبب في شعور المتلقي لهما بتطابقهما، فلا يعي المبدأ الأخلاقي إلا بوكم أنه جميل، وهذا بدوره تكريس لمصداقية وفاعلية "المبدأ الأخلاقي" في واقع المجتمع، مما يعطي الحرية لإبداع المفكرين المعنيين لتوليفات جديدة بين "المبدأ الأخلاقي" والمقتضيات الرائعة لـ "الذوق الجمالي" يمكنها تحفيز الأفراد على تطبيقه مثلما يحصل من تنميق للمعالم الدينية؛ ويكون فعل

---

[1] – مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 88.

[2] – صحيح مسلم: 131، أحمد: 15323، الترمذي: 1929، النسائي: 5128.
قال المناوي في فيض القدير: وذلك بأن يلبس ثيابا تليق بحاله نفاسة وصفاقة ونظافة ليعرفه المحتاجون للطلب منه، مع رعاية القصد وتجنب الإسراف...، وكان الحسن يلبس ثوبا بأربع مائة، وفرقد السنجي يلبس المسح، فلقي الحسن فقال ما ألين ثوبك!، قال يا فرقد ليس لين ثيابي يبعدني عن الله ولا خشونة ثوبك تقربك منه. وقد ذكر الإمام ابن كثير رحمه الله عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان يقول:

أَجِدِ الثِيابَ إِذا اكتسيتَ فإنَّها	*****	زينُ الرجالِ بها تَعزُّ وتَكرُمُ
وَدَعِ التَواضُعَ في الثيابِ تَحوُّباً	*****	فاللهُ يَعلمُ ما تَجِنُّ وتَكتُمُ
فرَثاثُ ثَوبِكَ لا يَزيدُكَ زُلفَةً	*****	عِندَ الإِلهِ وَأَنتَ عَبدٌ مُجرِمُ
وَبهاءُ ثَوبِكَ لا يَضُرُّكَ بَعدَ أَن	*****	تَخشى الإِلهَ وَتَتَّقي ما يَحرُمُ

[3] – محمد العبدة، مرجع سابق، ص 122.

Mokarabat

"التوجيه" هنا أيضا هو من الأعلى: من القادة سياسة وفكرا وكبار الأسرة، بما يحول "التوجيه الجمالي" إلى فن التعامل مع الطبيعة بمعناها الواسع، غير مقتصرة على الطبيعة الإنسانية[1].

3-2-3 الفاعلية: وتحت وطأة الصراعات الأوروبية ينفعل "توينبي" ليقدم فلسفة توطن الإنسان على الاستجابة لمختلف أنواع التحديات التي تواجهه حضاريا معتبرا درجة الاستجابة دالة على مدى تقدمه؛ كما تنطلق الفلسفات الوجودية من "الوعي" الإنساني الذي تدفع صاحبه إلى أن يتوسله للتحرر من شيئيته وعدميته ليخلق ذاته باستمرار لا ينقضي، أو كفلسفة الحياة لـ "برغسون" التي تطالبه بـ "التطور الخلاق"[2]، أو كالتيار البراغماتي لدى لقي انتشارا واسعا في العالم وهو التيار الذي يقيس درجة نجاح الفكرة بمدى فاعليتها في الواقع؛ وكيف لـ "ابن نبي"، والذي اطلع على مختلف تلك الفلسفات ألا يتأثر بتلك الوسيلة التي يستغلها أصحابها لإدراك هدف "التغيير"، وهو الطامح مثلهم إليه، وخاصة إلى تغيير "إنسان ما بعد الموحدين" إلى فعال، بدل مجرد كونه منفعلا سلبيا بما يجري حوله[3].

وقضية الفاعلية عند "مالك بن نبي" تندرج ضمن منظومته الفكرية العامة التي حددها في مشكلة الحضارة الشاملة، السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، فمشكلة الحضارة عنده قضية لا تتجزأ، وأي تجزئ لها يفوت حتما إلى طرح المشكلات طرحا مخطئا، ومن ثم يؤدي إلى تحديد وسائل مخطئة للعلاج. ولهذا يعتبر "مالك بن نبي" أن العالم الإسلامي أضاع وقتا طويلا، وجهدا كبيرا بسبب عدم التحديد المنهجي الصحيح للمرض الذي يتألم منه منذ قرون عدة، ويرجع ذلك إلى التجزيئية التي عزلت القضايا عن بعضها ونظرت إلى كل واحدة على حدى[4].

---

[1] – هدى بن زقوطة، مرجع سابق، ص 16.

[2] – التطور الخلاق "Evolution créatrice" كتاب للفيلسوف الفرنسي "هنري برغسون Henri Bergson: 18 أكتوبر 1859م – 04 جانفي 1941م"، وقد صنِّف هذا الكتاب على أنه من أهم إنجازات "برغسون"، والذي لاقى رواجاً أكاديمياً وشعبياً على حد سواء. وقد ضم هذا الكتاب بين دفتيه مساهمات فلسفية مهمة في مضمار النشوء والتطور. كما احتوى على معالجة لمفهوم الدافع الحيوي (الخلاق) الذي اهتم به عدد من الفلاسفة لاحقاً. ووفقاً لـ "بيير لامبرت"، فإن هذا الكتاب يعد حجر الأساس لاتجاه جديد في التفكير. وفعلاً فقد قامت "دار ألكن" بطبعه إحدى وعشرين مرة.

[3] – هدى بن زقوطة، مرجع سابق، ص 17.

[4] – وصفي عاشور أبو زيد، فكرة الفاعلية عند مالك بن نبي، العدد 20، السنة الرابعة، 2003م، ص 13.

Mokarabat

4-2-3 مبدأ الصناعة: لا يعني بالصناعة ذلك المعنى الضيق المقصود من هذا اللفظ، فإن كل الفنون والمهن والقدرات وتطبيقات العلوم تدخل في مفهوم الصناعة، وإذا كانت الصناعة للفرد وسيلة لكسب عيشه وربما لبناء مجده، ولكنها للمجتمع وسيلة للمحافظة على كيانه واستمرار نموه.

يرى "مالك بن نبي" أن الحالة على محور الصناعة، يجب أن تأخذ في اعتبارها الحالة على محور المادة الأولية لأنهما متكاملان في الاطراد العالمي فإذا انفصلا فربما لا تحل كلتاهما بمفردها المشكلة العالمية، فالتعايش الاقتصادي على محور القوة يسيطر بدون شك على الحالة العالمية بسبب ما لديه من عناصر النظام الصناعي وعوامل القوة والإمكانيات المادية، فهناك دائما واحدة في المشكلة الإنسانية تنبثق من المصير المشترك وسنجد أمامنا ثلاثة حلول مترابطة في الذهن، الحل الذي يصدر عن سياسة حكومية والحل الذي يصدر عن حتمية التاريخ التي هي في نهاية الأمر العامل الذي يحدده ويفرضه، فالعالمية هي واقع لعصرنا وغاية محتومة لتطورنا الراهن وضرورة تفرضها الظروف الصناعية والنفسية التي فرضها العالم وقد دخلت الإنسانية بشطريها المتخلف والمتقدم في عهد العالمية[1].

ويدرك "مالك بن نبي" أنه إذا كان للتعليم الجامعي -مثلا- أن يؤثر جزئيا في تغيير بعض أشكال التفكير فإنه يعجز عن إلغائها، في مقابل ذلك يعتبر أن الوسط الاجتماعي هو الأقدر على تغييرها جذريا بفعل التربية المجتمعية، وهو بهذا يتّجه إلى مدى خطورة الفكرة الأخلاقية" التي توجه "العلم" و"الصناعة" وغيرهما، فهي الأولى بالترسيخ في نفوس الأفراد، لكن هذا لن يتم إلا بوسائل من أهمها العلم نفسه والصناعة للخروج من المشاكل المجتمعية[2].

وقد آن للمجتمع الإسلامي الرجوع إلى مضمار الحضارة، مستفيدا من شروط بنائها النظري من جهة، مع ضرورة ربطها بالتطبيق العملي، والعالم الإسلامي بعد نكساته المتلاحقة أمام الغرب الذي سهل عليه استغلاله بشتى الوجوه لما أضفى المسلم عليه طابع

[1] – مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية، دار الفكر، دمشق، سوريا، طبعة 1981م، ص 110.
[2] – هدى بن زقوطة، مرجع سابق، ص 19.

Mokarabat

القداسة فما أفلح في الاستفادة منه، وخاصة بعد النكسات الأخلاقية للغرب، فأولى بـــه أن يتجه أكثر إلى الناحية المقابلة: صوب الشرق أين تتزايد بـــاطراد وثبـــات المجتمعـــات الآسيوية لتحصيل أدوار حضارية كبرى في المجتمع العالمي سياسيا، اقتصاديا وفكريـــا، منطلقة من خصائص اجتماعية أبدعتها حاجتها التاريخية إلى التطور كالـــصين، الهنـــد، النمور الآسيوية، وخاصة الريادة المتميزة لليابان التي اعتلت في زمن قصير سلم المجـــد الحضاري لتتجاوز بذلك مستعمريها الوهميين[1].

4- أسباب فشل النهضة الإسلامية والتيارات الجاذبة لها وأهمية التغيير:

4-1 أسباب فشل النهضة الإسلامية:

يمكن عزو الأسباب التي أدت إلى فشل النهضة العربية فيما يلي:

4-1-1 القابلية للاستعمار: يعتبر هذا المصطلح من أشهر المفاهيم التـــي أطلقهـــا "مالك بن نبي"، وهو يعني غالبا التخلف الحضاري الذي أصاب المسلمين في العـــصور الأخيرة، مما يجعل عدوّهم يتغلب عليهم ويستعمرهم ويفرض عليهم مدنيته، أي أن هناك فوضى اجتماعية معينة، وتقاعس عن أداء الواجبات، وقلة في المعرفة والعلم أمام خداع الاستعمار ومكره، مما يجعله يسير بلدا كبيرا بعدد قليل من الجنود، وتوهم للقوة الخارقة عند العدو، مما يدعو للاستكانة له، هذا الوضع المتخلف هو الذي يسهل سيطرة الغزاة[2].

ويلح مالك بن نبي على أن تصفية الاستعمار في العقول (القابلية للاستعمار) تسبق كل شيء، وتصفية الاستعمار من العقول تتطلب أشياء كثيرة يتضمنها مفهوم الثقافة ومفهـــوم الحضارة، وهي لا تتحقق إطلاقا بمجرد انسحاب جيـــوش الاســـتعمار ومجـــرد إعـــلان الاستقلال وتحرير دستور كما هو الأمر بالنسبة للتراب الوطني[3].

4-1-2 نقائص العقل المسلم: يفتقد العقل المسلم القدرة على الرؤيـــة البانوراميـــة الشاملة، ويركز على جزء أو بعض أجزاء من المشهد العام دون احتوائه كله. وقد عجز لطول اعتقاله عن رد الظواهر إلى أسبابها. وهو لا يرى الألوان الرمادية، وحسبه فقـــط

---

[1] – نفسه، ص 20.

[2] – محمد العبدة، علماء ومفكرون معاصرون، ج31، مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاحي، دار القلم، دمشق، ط 1، 1427هـ–2006م، ص 80.

[3] – عبد اللطيف عبادة، منهج مالك بن نبي في مواجهة تحديات الحضارة الغربية المعاصرة، مجلة رؤى، السنة الرابعة، العدد 20، 2003، ص 79.

Mokarabat

اللونان الأبيض والأسود، فلا يرى الحلول الوسطية، فإما براءة أو إعدام، إما كبيرة من الكبائر أو هفوة من الهفوات، إما ملاك أو شيطان. لاحظ ذلك لدى وعاظنا على المنابر، فهم لا يرون سوى قمر الجحيم أو الفردوس الأعلى، ولا شيء بينهما. وكل مرتكبي الذنوب – أي ذنوب– في نظرهم آثمون مارقون وسيُصلون سعيرا، مهما كانت الذنوب بسيطة. ومما يقع في دائرة اللمم الذي يغفره الله تعالى – إن شاء – ما دامت هذه الذنوب من غير الكبائر[1].

4-1-3 نشوء فكرة التبشير وأهدافه: بعد فشل الحروب الصليبية (1099م–1291م) في السيطرة على بلاد المسلمين وعلى الشرق العربي الإسلامي، تبلورت في أذهان الغربيين فكرة التنصير (التبشير) الذي يرمي ظاهره إلى نشر الدين المسيحي في ديار المسلمين واستبدال الإسلام بالمسيحية، وهذا ما صرح به "البابا يوحنا بولس الثاني" خلال رحلته إلى إفريقيا عام 1985م فقال: "إن هدف الكنيسة من التنصير إيقاف المد الإسلامي في إفريقيا، وإنشاء منصات انطلاق مادية فيها على غرار البنوك الإسلامية لمواجهة هذا المد الإسلامي الكبير".

لقد كان هذا ظاهر الأمر، أما جوهره فقد كان يهدف إلى إذلال المسلمين وكسر شوكتهم، وإخضاعهم لسيطرة الغرب الملحد واستعمار بلادهم.

وابتدأ نشاط هذه الحركة الخبيثة بإرسال مفكرهم "ريموند لول" إلى بلاد الشام، فأقام فيها وتعلم لغة أهلها وتقرب من علمائها، ثم راح يناقشهم في معتقداتهم وأمور دينهم.

بعد ذلك عاد هذا الداهية إلى بلاده محملا بالأفكار والمعلومات عن الإسلام والمسلمين، فروجها بين الذين جنّدوا للنيل من هذا الدين الحنيف[2].

4-1-4 ظهور الدولة الواهنة: ضعف الدول وظهور "الدولة الواهنة"، يسهم في رسم صورة رابعة لعالم غارق في الفوضى. هذ النموذج يؤكد انهيار السلطة الحكومية، تفكك الدول، اتساع نطاق الصراعات القبلية والعرقية والدينية، ظهور المافيا الإجرامية الدولية، زيادة أعداد اللاجئين بعشرات الملايين، انتشار الأسلحة النووية وغيرها من

[1] – نبيل هلال هلال، اعتقال العقل المسلم ودوره في انحطاط المسلمين، دار الكتاب العربي، دمشق، ط 3، 2005م، ص 13.
[2] – محمد نبيل النشواتي، الإسلام يتصدى للغرب الملحد، مج 2، دار القلم، دمشق، ط 1، 1431هـ – 2010م، ص 99.

Mokarabat

أسلحة الدمار الشامل، انتشار الإرهاب، تفشي المذابح والتطهير العرقي. هذه الصورة للعالم في حالة فوضى تم تقديمها وتلخيصها في عنواني عملين مهمين صدرا في عام 1993م، هما "خارج السيطرة" لـ "زبيجنيو بريجينسكي"، و"الجحيم لـ "دانييل باتريك موينيهان". ومثل نموذج الدولة، فإن نموذج الفوضى قريب من الحقيقة، فهو يقدم صورة نابضة ودقيقة لكثير مما يحدث في العالم، وعلى عكس نموذج الدولة يلقي الضوء على التغيرات الأساسية في السياسة العالمية والتي حدثت مع نهاية الحرب الباردة، فمنذ بدايات عام 1993م مثلا، كان هناك ما يقرب من 48 حربا عرقية في العالم، و164 شكوى وصراعا عرقيا على الحدود في الاتحاد السوفييتي السابق، كان من بينها ثلاثين (30) تضمنت شكلا من أشكال الصراع المسلح. إلا أن هذا النموذج يعاني أيضا أكثر من نموذج الدولة لكونه قريبا جدا من الحقيقة[1].

4-2 التيارات الجاذبة لرذا النهضة من وجهة نظر "مالك بن نبي":

في نظر "مالك بن نبي" فإن النهضة الإسلامية فشلت لأنها لم تتمكن من تشخيص غاية واضحة، ومن تشخيص المشكلة الاجتماعية تشخيصا صحيحا، ومن تحديد الوسائل تحديدا يناسب الغاية المنشودة والإمكانيات.

ويؤكد أن النهضة جعلتنا نتوجه بالطبع في طريق الحضارة. ولكن بكل أسف من غير أن نحدد الهدف ونوضح معالم الطريق. فلو أننا وازينا سيرنا الحضاري بسير حضارة أخرى، فسوف نشعر في عصر السرعة، في العصر الذي يخضع فيه التطور الاجتماعي إلى عوامل التاريخ، إلى عوامل التسريع، بأننا نسير ببطء[2]. وإن حركة النهضة يجاذبها تياران: التيار الإصلاحي الذي ارتبط بالضمير المسلم، وتيار التجديد، وهو أقل عمقا، وأكثر سطحية، وهو يمثل مطامح طائفة اجتماعية جيدة تخرجت في المدرسة الغربية، ومن أمثلتها الحركة الجامعية التي قامت في "عليكرة" بالهند.

---

[1] – صامويل هنتجتون، صدام الحضارات: إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة: طلعت الشايب، نيويورك، ط 2، 1999، ص ص 58–59.

[2] – عبد اللطيف عبادة، منهج مالك بن نبي في مواجهة تحديات الحضارة الغربية المعاصرة، مجلة رؤى، السنة الرابعة، العدد 20، 2003، ص 77.

Mokarabat

أما التيار الأول: فيبدوا أنه خط طريقه في الضمير المسلم منذ عصر "ابن تيمية" مثل ما يخط الماء مجراه في باطن الأرض، ثم ينبجس هنا وهناك من آن لآخر. فهذا التيار هو الذي أدى إلى تكوين إمبراطورية الموحدين القوية في إفريقيا الشمالية على يد "ابن تومرت"، وهو الذي أدى إلى إنشاء دولة الوهابيين في الشرق على يد "محمد بن عبد الوهاب"، ثم اكتسحها "محمد علي" بإيعاز من الباب العالي، وتأييد من الدول الغربية عام 1820م، ومع ذلك فقد بقي روح الوهابية حيا، حتى تمكن القائمون بها من الظهور مرة أخرى عام 1925م في صورة المملكة الوهابية الحديثة[1].

أما التيار الثاني والمتمثل في الحركة الحديثة، فهو يرمي إلى قيادة العالم الإسلامي في طريق غاية في الاختلاف عن هذه الطريق، فقد حطمت التقاليد التي كانت تخفي جهالة ما بعد الموحدين، ولكنها جاءت أحيانا إلى العنف، وهو ما حدث على يد الحركة الكمالية في تركيا[2]. ومن البين أن عددا كبيرا من المسلمين، لم يرحل في طلب الغرب، فهذه الحركة لا تعدوا على هذا مستوى يتخبط فيه مجتمع فقد توازنه التقليدي، إذ هي مكونة في جوهرها من عناصر خالية من المعنى مأخوذة من المدرسة الاستعمارية، ثم يضاف إلى هذه العناصر بعض العناصر الأخرى التي التقطتها اتفاقا الشبيبة الجامعية التي نشأت في طبقة متوسطة، وأقامت في أوربا إقامة قصيرة لم تهدف خلالها إلى معرفة الحضارة الغربية[3].

5- إسهامات الحضارة الإسلامية في بزوغ الحضارة الغربية

في البداية لا بد أن نشير من أن عصر النهضة في أوروبا انبثق فقط عندما تم استبعاد تدخلات الكنيسة الكاثوليكية في نطاق العلم، وفي مجال السياسة على السواء. وقد وجد الأوروبيون في الديمقراطية بالذات ملجأ من تعسف الكنيسة واضطهادها، ومسوغا لمقاومة الطغيان، لذا عادت أوروبا من جديد تناقش المسألة الديمقراطية، التي اختفت طوال فترة العصر الوسيط، وتطبق الديمقراطية كأسلوب للحكم وتنتقده وتطوره، بل

[1] – مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، سوريا، طبعة 1423هـ– 2002م، ص 49.
[2] – نفسه، ص 62.
[3] – نفسه، ص 64.

Mokarabat

وتصدره كأمثل نظام من أنظمة الحكم، وتجاهد في سبيله كما كانت تجاهد من قبل في سبيل المسيحية[1].

ومنذ أن مسك الغرب بناصية العلم وبدأ أول خطواته على طريق التقدم الصناعي والتكنولوجي حتى أخذت تتراجع القيم الإنسانية في منظومته الأخلاقية، بدأت تحل قيم جديدة تكرس الحس العنصري، وتفترض وجود عناصر بشرية راقية، هو الغرب، وأخرى تنحدر عن أصول متخلفة، هم الشرق، ومنذ ذلك الحين أخذ الغرب يحتقر الآخر ويهمشه ويفرض عليه أنساقه الثقافية بعد أن يحطم بنيته المعرفية، وقديما حول الغرب الشرق موضوعا للدراسة والبحث بهدف استغلاله وإذلاله، دون أن يعترف له بإنسانيته، ولم يسمح له بحق الحياة مستقلا عنه. وظل الآخر يدور في فلك المركز مقموعا في داخله، مضطهدا يتخطفه بريق الحضارة الغازية، ويلهث من أجل اللحاق بها[2].

يقول "جوستاف لوبون Gustav LEBON": "ولم يكد العرب يتمُّون فتح إسبانيا حتى بدؤوا يقومون برسالة الحضارة فيها. فاستطاعوا في أقل من قرن أن يحيوا ميت الأرضين، ويعمِّروا خراب المدن، ويقيموا فخم المباني، ويوطدوا وثيق الصلات التجارية بالأمم الأخرى، ثم شرعوا يتفرغون لدراسة العلوم والآداب، ويترجمون كتب اليونان واللاتين، وينشئون الجامعات التي ظلت وحدها ملجأ للثقافة في أوربا زمنا طويلا"[3].

والواقع أن الصواب هو القول بأنه ينبغي أن ندرك أن التقدم في مختلف العلوم والفنون والصناعات يمثل جانبا هاما من جوانب الحضارة، ولكن هذه كلها ليست كُنه الحضارة ولا كل ما يُقصد بالحضارة، لأن الحضارة تتكون من ناحيتين هما: الناحية الروحية الأخلاقية والناحية العلمية.

---

[1] – عبد العزيز صقر، النقد الغربي للفكرة الديمقراطية (النظرية والتطبيق)، مجلة البيان، الإصدار الرابع، الرياض، 1428هـ–2007م، ص ص 23–24.

[2] – ماجد الغرباوي، إشكاليات التجديد، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 1، 1421هـ – 2001م، ص 48.

[3] – راغب السرجاني، ماذا قدم المسلمون للعالم، ج 2، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط 2، 1430هـ – 2009م، ص 694.

Mokarabat

أما الناحية الأولى فهي التي عليها مدار تكوين الأمة وقيام شخصيتها وبلوغ احتـــرام الآخرين وتقديرهم، وبها يقاس ارتفاع الأمة أو انحطاطها، فإن أية أمة لا تملك رصيدا من القيم الروحية والأخلاقية الفاضلة لا تعتبر أمة تملك حضارة أو تستحق أن توصف بها.

وأما الناحية المادية، فهي التي عليها مدار تكوين اقتصاد الأمة ورفاهيتهـــا الدنيويـــة، والصورة الظاهرة للغرب أنهم يملكون الاقتصاد القوي على الرغم من الحاجـــة الـــشديدة والفقر المدقع الموجود عند أكثر العامة منهم، على أن الناحية المادية فقط لا توصل أيـــة أمة من الأمم إلى الحضارة الحقيقية النافعة[1].

ويقول الأستاذ "محمد أسد" (ليوبولد فايس): "إن النهضة أو إحيـــاء العلـــوم والفنـــون الأوربية باستمدادها الواسع من المصادر الإسلامية والعربية على الأخص كانت تعـــزى في الأكثر إلى الاتصال المادي بين الشرق والغرب، لقد استفادت أوربا أكثر مما اســـتفاد العالم الإسلامي، ولكنها لم تعترف بهذا الجميل"[2].

فكل حضارة تصنع هكذا نماذج اجتماعية ووجوها تقليدية تتعاقب في الأجيال، تـــضع عليها طابعها، وترسم ملامحها ما يعبر عن رسالتها الخاصـــة. فالحـــضارة الغربيـــة، باعتبارها شغالة ومهنية، قد صنعت النموذج الاجتماعي المطبوع بما نسميه مثاليتهـــا، أي المطبوع بالعبقرية التي تتمثل فيما يطلق عليه الإنجليزي "الشغل Business"، وبالحكمـــة التي يعبر عنها هذا الرجل فيقول "إن الوقت هو الدرهم"[3].

6- عوامل إعادة بعث الحضارة الإسلامية:

يمكن إرجاع العوامل التي تؤدي إلى إعادة بعث الحضارة الإسلامية إلـــى العوامـــل التالية:

6-1 العودة إلى تعاليم الدين الإسلامي الحنيف:

يقول بعض الناس، مالنا والرجوع إلى القرآن في ابتعاث همم المسلمين إلى التعلـــيم، فإن النهضة لا ينبغي أن تكون دينية بل وطنية قومية كما هي نهضة أهل أوربا، والجواب

---

[1] –غالب بن علي عواجي، المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، ج 1، المكتبة العصرية الذهبية، جدة، ط 1، 1427هـ – 2006م، ص 185.

[2] – أحمد القصص، أسس النهضة الرشيدة، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 1، 1416هـ–1995م، ص 32.

[3] – مالك بن نبي، في مهب المعركة، دار الفكر، دمشق، سوريا، طبعة 1423هـ– 2002م، ص 116.

Mokarabat

أن المقصود هو النهضة سواء كانت وطنية أم دينية على شرط أن تتوطن بهـا النفـوس على الخب في حلبة العلة، ولكننا نخشى إن جردناها من دعوة القرآن أن تفضي بنا إلـى الإلحاد والإباحة وعبادة الأبدان واتباع الشهوات، مما ضرره يفوت نفعه، فلا بد لنا مـن تربية علمية سائرة جنبا إلى جنب مع تربية دينية.

ثم إنهم عندما يقولون: "في أوروبا (نهضة وطنية) أو (نهضة قومية) أو جامعة وطنية أو قومية"، فإن مرادهم لا يكون بالوطن التراب والماء والـشجر والحجـر، ولا بـالقوم السلالة التي تنحدر كلها من دم واحد، وإنما الوطن والقوم عندهم لفظتان تدلان على وطن وأمة بما فيها من جغرافية وتاريخ وثقافة وحرث وعقيدة ودين وخلق، وعادة مجموعا ذلك معا، وهذا الذي يناضلون عنه ويستبسلون كل هذا الاستبسال من أجله[1].

ومما لا شك فيه أن الإسلام قد رسم للمسلمين سبيل إقامة المجتمع الإسلامي، وبعبارة أخرى رسم الطريق لنهضة مجتمعهم. إلا أن هذا الطريق لا يمكن فهمه وتطبيقـه قبـل معرفة واقع المجتمع من حيث هو مجتمع. ذلك أن طريقة الإسلام في معالجـة المـشاكل وإعطاء الحلول هي على النحو التالي:

أ- فهم الواقع فهمًا دقيقًا عميقًا للوقوف على حقيقة المشكلة التي تراد معالجتها.

ب- العودة إلى النصوص التشريعية لفهم النصوص المتعلقة بذلك الواقع وتلك المشكلة فهمًا تشريعيًا، وتكون الغاية معرفة حكم الله في تلك المسألة، وذلك لأخذ المعالجـات والحلول من الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ.

ج- تطبيق هذه المعالجات الشرعية على ذلك الواقع لحل المشكلة المطروحة.

من هنا كان لابد أولا من معرفة واقع المجتمع البشري من حيث هو مجتمع، أي لا بد من تعريف المجتمع، فالكثير من الناس ينظرون إلى المجتمع نظـرة سـطحية عـابرة، فيعرفونه تعريفًا خاطئًا لا ينطبق على واقعه، فيقولون: إن المجتمع هو مجموعة أفراد من

[1] – شكيب أرسلان، لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط 2، 1998م، ص ص 138-139.

Mokarabat

الناس وتبعًا لتعريفهم هذا يضعون تصورًا لكيفية النهوض بالمجتمع أو إصلاحه فيقولون: "أصلح الفرد يصلح المجتمع"[1].

2-6 التغيير:

يشير "مالك بن نبي" أن الأساس في إعادة بعث النهضة الإسلامية يتمثل في التغيير، ويظهر ذلك جليا من خلال كتابه الموسوم بـ "حتى يغيروا ما بأنفسهم، وهو مقتبس من الآية القرآنية: ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2].

والتغيير الذي ينبغي أن يحدث أولا هو التغيير الذي جعله الله مهمة القوم وواجبهم، بأقدار الله تعالى لهم على ذلك، وإن حدوث أي تهاون في الخلط بين التغييرين، وإدخال التغيير الذي يحدثه الله بالتغيير الذي يقوم به القوم، أو العكس، يفقد الآية فعاليتها، وتضيع فائدة السنة الموجودة فيها.

والرجاء بأن يحدث الله التغيير الذي يخصه، قبل أن يقوم المجتمع بالتغيير الذي خصهم الله به، – يكون هذا النظر – مخالفا لنص الآية، وبالتالي إبطالا لمكانة الإنسان وأمانته ومسؤوليته، ولما منحه الله من مقام الخلافة على أرضه، لأن هذا التحديد في مجالات التغيير، وهذا الترتيب فيما ينبغي أن يحصل أولا، وما يحدث تاليا، هو الذي يضع البشر أمام مسؤولية حوادث التاريخ النافذة يمكن إيصار البشر في إحداث التاريخ ومسؤوليتهم إزاءها[3].

هنا تحديدا تتجلى النظرية الإرادية لـ "مالك بن نبي" بهدف تخليص الضمير المسلم من الحتمية التي تفرضها عليه الأوضاع التي يكابد بها اليوم من جراء تخلفه، حيث يقول: "إن كل قانون يفرض على العقل نوعا من الحتمية تقيد تصرفه في حدود القانون.

---

[1] – أحمد القصص، مرجع سابق، ص 81.

[2] – وردت هذه الآية في موضعين في القرآن الكريم هما:

أ– قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنفال، الآية: 53].

ب– قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [سورة الرعد، الآية: 11].

[3] – جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم، تقديم: مالك بن نبي، طرابلس، بيروت، ط 8، 1989، ص 46.

Mokarabat

فالجاذبية قانون طالما قيد العقل بحتمية التنقل جوا أو بحرا. ولم يتخلص من هذه الحتمية الإنسان بإلغاء القانون، ولكن بالتصرف مع شروطه الأولية بوسائل جديدة تجعله يعبر القارات والفضاء كما يفعل اليوم. فإذا أفادتنا هذه التجربة شيئا إنما تفيدنا بأن قانون في الطبيعة لا ينصب أمام الإنسان الدائب استحالة مطلقة. وإنما يواجهه بنوع من التحدي يفرض عليه اجتهادا جديدا للتخلص من سببية ضيقة النطاق". وعلى هذا الأساس تتغير وجهة النظر في سير التاريخ، إذ أن المراحل التي تتقبل أو لا تتقبل التغيير حسب طبيعتها، تصبح مراحل قابلة كلها للتغيير لأن الحتمية المرتبطة بها أصبحت اختيارا يتقرر في أعماق النفوس[1].

الخاتمة:

يعتبر مالك بن نبي من المفكرين القلائل الذين وضعوا يدهم على الجرح الغائر للأمة بعيدا عن المزايدات (1905-1973) العصبوية، واستطاع تشخيص المرض المتورم الذي مازلنا نعانيه على كافة المستويات والأصعدة، ولا عجب في ذلك، لأن المتتبع لنتاجات وأفكار مفكري المغرب العربي بشكل عام، يجد أن أطروحاتهم في الفكر والتاريخ والتراث والحداثة وتشخيصهم لأمراض الأمة أكثر دقة من أقرانهم في المشرق العربي، لأنهم بعيدون عن مركز الزلزال الطائفي المتمركز في الشرق مما جعل ذاكرتهم غير مثقلة بتركة الماضي، أما مفكرو المشرق فقد فرض عليهم مؤثرات المكان ضغوط نفسية واجتماعية ومذهبية ربما تعوقهم عن الطرح الأمثل لقضايا الفكر والتاريخ الإسلامي وتعلق فيها بعض الرواسب.

وقد تميز العمل الذي قام به "مالك بن نبي" في حقل البحث بطابعه العلمي من جهة وبطابعه الفلسفي من جهة أخرى، فهو استطاع أن يضع نظرية في الحضارة ويقدم التجديد الحضاري في استراتيجية لم يعرفها أحد قبله، إنّ نظريته في الحضارة تمثل إبداعا فكريا وفلسفيا وعلميا لا نظير له في عصرنا بما تميزت به هذه النظرية من دقة في طرح المشكلات وحصرها وعمق في التحليل وموضوعية في التصورات والتفسيرات

[1] – محمد البشير مغلي، السنة الإلهية في تحليلية مالك بن نبي ومنهجية المفسرين، مجلة دراسات، العدد 20، السنة الرابعة، 2003م، ص 31.

Mokarabat

وتنوع في المناهج والأساليب، فجاءت نظريته فلسفية وعلمية أخذت من الفلسفة القدرة على المشكلة والتحكم في التصورات والمفاهيم والقدرة على الاستشهاد وتبرير النتائج، وأخذت من العلم الدقة في الطرح والموضوعية في التحليل وانتهاج مختلف مناهج البحث العلمي. تعرّف "مالك بن نبي" على حركة الإصلاح والتجديد في عصره وانتقدها وبيّن ما لها وما عليها ولم يكن من ذوي التطرف في فكره في تعامله مع مختلف التيارات الفكرية في العالم الإسلامي، فكان همّه الوحيد هو الوصول إلى الحقيقة في حل مشكلة الحضارة.

Mokarabat

مراجع البحث:

أولا: القرآن الكريم

1- سورة البقرة.

2- سورة الأنفال.

3- سورة هود.

4- سورة الرعد.

ثانيا: السنة النبوية الطاهرة

1- مسند الإمام أحمد: 15323.

2- سنن النسائي: 5123.

3- سنن الترمذي: 979.

4- صحيح مسلم: 131.

ثالثا: المعاجم والقواميس

1-ابن منظور، لسان العرب، ج 6، دار المعارف، القاهرة، ص 4560.

رابعا: الكتب

1- أحمد القصص، أسس النهضة الرشيدة، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 1، 1416هـ-1995م.

2- جاسم سلطان، النهضة من الصحوة إلى اليقظة، مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع، سلسلة: أدوات القادة – مشروع النهضة، بدون مكان، ط 4، 2010م.

3- جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم، تقديم: مالك بن نبي، طرابلس، بيروت، ط 8، 1989م.

4- ماجد الغرباوي، إشكاليات التجديد، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 1، 1421هـ - 2001م.

5- مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر، دمشق، طبعة 1406هـ-1986م.

6- مالك بن نبي، بين التيه والرشاد، دار الفكر، دمشق، طبعة 1423هـ- 2002م.

Mokarabat

7- مالك بن نبي، القضايا الكبرى، دار الفكر، دمشق، طبعة 1420 هـ- 2000م.
8- مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية، دار الفكر، دمشق، طبعة 1981م.
9- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، طبعة 1423هـ- 2002م.
10-مالك بن نبي، في مهب المعركة، دار الفكر، دمشق، طبعة 1423هـ- 2002م.
11-محمد العبدة، علماء ومفكرون معاصرون، ج31، مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاحي، دار القلم، دمشق، ط 1، 1427هـ-2006م.
12-محمد نبيل النشواتي، الإسلام يتصدى للغرب الملحد، مج 2، دار القلم، دمشق، ط 1، 1431هـ - 2010م.
13-نبيل هلال هلال، احتلال العقل المسلم ودوره في انحطاط المسلمين، دار الكتاب العربي، دمشق، ط 3، 2005م.
14-علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة: محمد يوسف عدس، مؤسسة العلم الحديث، بيروت، 1414هـ - 1994م.
15-صامويل هنتجتون، صدام الحضارات: إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة: طلعت الشايب، نيويورك، ط 2، 1999م.
16-راغب السرجاني، ماذا قدم المسلمون للعالم، ج 2، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط 2، 1430هـ - 2009م.
17-شكيب أرسلان، لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط 2، 1998م.
18-غالب بن علي عواجي، المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، ج 1، المكتبة العصرية الذهبية، جدة، ط 1، 1427هـ - 2006م.
19-غالب بن علي عواجي، المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، ج 2، المكتبة العصرية الذهبية، جدة، ط 1، 1427هـ- 2006م.

Mokarabat

خامسا: الرسائل الجامعية

1- هدى بن زقوطة، الدور الحضاري للمجتمعات الآسيوية المعاصرة عند مالك بن نبي (اليابان أنموذجا)، رسالة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماجستير في الفلسفة، جامعة منتوري، قسنطينة، 2009-2010.

2- حسن موسى محمد العقبي، مالك بن نبي وموقفه من القضايا الفكرية المعاصرة، رسالة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماجستير في العقيدة والمذاهب المعاصرة، الجامعة الإسلامية، غزة، 1426هـ- 2005م.

3- عبد الله علي عمران، التيار العلمي في الفكر العربي، مذكرة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماجستير في الفكر العربي المعاصر، كلية الآداب، قسم الفلسفة، جامعة عمر المختار، الجماهيرية العربية الليبية، 2007-2008.

سادسا: المجلات والملتقيات

1- أسعد السحمراني، مالك بن نبي والإنسان ومسار الحضارة، ثقافتنا، العدد 13، 1427هـ.

2- وصفي عاشور أبو زيد، فكرة الفاعلية عند مالك بن نبي، العدد 20، السنة الرابعة، 2003م.

3- حسين مؤنس، الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، مجلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978م.

4- محمد البشير مغلي، السنة الإلهية في تحليلية مالك بن نبي ومنهجية المفسرين، مجلة دراسات، العدد 20، السنة الرابعة، 2003م.

5- سامر مظهر قنطقجي، النظرية التنموية في فكر ابن خلدون ومالك بن نبي، ورقة عمل قدمت في الملتقى الدولي في اقتصاد التنمية (نحو تنمية واقعية في الجزائر) - جامعة باجي مختار، عنابة، 4-2006/10/5.

6- سليمان الخطيب، المسألة الحضارية بين مالك بن نبي وسيد قطب، مجلة دراسات، العدد 20، السنة الرابعة، 2003م.

Mokarabat

7- عبد اللطيف عبادة، منهج مالك بن نبي في مواجهة تحديات الحضارة الغربية المعاصرة، مجلة رؤى، السنة الرابعة، العدد 20، 2003م.

8- عبد العزيز صقر، النقد الغربي للفكرة الديمقراطية (النظرية والتطبيق)، مجلة البيان، الإصدار الرابع، الرياض، 1428هـ- 2007م.

9- عبد الرزاق الجبران، فلسفة النشوء الحضاري، مجلة النبأ، العدد 41، شوال 1420هـ، كانون الثاني، 2000م.

سابعا: المواقع الالكترونية

1- محمد العبدة، مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي، الإسلام اليوم، الخميس 28 ربيع الأول 1424 الموافق 29 مايو 2003، www.islamtoday.net، تاريخ الزيارة: 26-03-2013.

2- محمد لعاطف، مقومات النهوض الحضاري عند مالك بن نبي، مركز الأصالة للدراسات، شبكة معرفية: www.vebeos.net، الأربعاء، 08 يونيو 2011، تاريخ الزيارة: 25-03-2013.

Mokarabat

في الختام..

لقد جعلنا " **ابن نبي**" بعد هذه الرحلة في عالمه الخاص، والمتألق نشعر بنوع من الاعتزاز الذي منشؤه الاكتشافات المتتابعة للنقاط الضيئة في مسيرة هذا الرجل الفكرية بعيدًا عن "الدوغمائية" أو المن.

إنّنا أمام رجل يتحسس مكامن الداء، ويرفض الأحكام المسبقة،أو الفرضيات المتعجرفة، وإنّما بحصانته، وهدوئه الذي يضع الأشياء في أماكنها ويقرر مصائرها بعد التقصي، والتدقيق، وربّما التجربة فكان بذلك أول مفكر عربي يطبق المنهج العلمي الصرف على القضايا الفكرية العربية والإسلامية الكبرى ذات الأبعاد الحضارية ولم يكن بأي حال من الأحوال يرغب في معرفة ما تحدثه تحليلاته من ردود أفعال في محيطه بقدر ما كان شغله الشاغل موضوع الإقلاع الحضاري للأمّة الإسلامية، وتحقيق النهضة الشاملة التي تعم الجميع، فكان بذلك متميزًا في طرحه،علميا في منهجه، متفتحا على غيره،عالمي النظرة في معالجته لحضارة كغاية إنسانية نبيلة تشترك فيها البشرية ككل وتدعوا إليها.

إنّ"**ابن نبي**" وقف أبحاثه على قضية القضايا، وإشكالة المشكلات التي رأى أنها حضارية بالدرجة الأولى،ولكنها كل متشابك يقتضي نظره متفحصة، ومشروعا ضخما يبدأ من الإنسان كمحور أساسي أو كمفتاح للحضارة،وصنع للأفكار،وينتهي عند تحصيل نتائج هذا التفاعل الإيجابي بصفته مكونا أساسيا لأي مشروع حضاري منتظر.

لقد بشَّر هذا المفكر الجزائري باستعادة الدور الريادي للأمّة ووضع "**ميكانيزمات**" النهوض الموضوعية، والشكلية،في قراءة استشرافية مستندة على معطيات تاريخية، و أخرى راهنة بأسلوب واع دون تشاؤم،أو اغترار، بخلاف شلة معتبرة من مفكري الأمّة المعاصرين سواء في طريقة التحليل أو المنهج،أو الطرح،أو النظرة إلى المعطيات الراهنة التي كثيرًا ما كانت متشائمة،عكس "ابن نبي" الذي حاول تجديد الهمم وشحن "**البطاريات**"، والإعداد لإقلاع متوثب قد يطول، ولكنه آت!

Mokarabat